يا أهلَ مصر عزاءكم ، فصابكم أمرٌ قضاهُ الله فى تقديرهِ
الشعر قد ثُلَّتْ بمصر عروشهُ بوفاة سيِّدهِ وموت أميرهِ
عَلَمَان من أعلامه كانا بهِ يتنازعان السَّبْقَ فى تحبيرهِ
لكليهما الهرَمان قد خشعا أسًى والنيل مدَّ أنينه بخريرهِ !

معروف الرصافى

أروع مرثية لشوقى

رثاؤه لوالدته

لانرى أنسبَ فى ختام شعر المراثى من نشر المرثية الفريدة التى فاضت بها شاعرية شوقى فى ندب والدته التى كان يحبها الى درجة العبادة ، وكأنه فى كثير من أبياتها يرثى نفسه ويبكى مآلَ الانسانية . وقد نظم الفقيدُ الكريمُ هذه المرثية الرائعة فى ظروفٍ مشجيةٍ حقّاً : وذلك على أثر اعلان الهدنة بينما كان يعلل النفس بالعودة الى الوطن العزيز ولقاء آله وصحبه وفى مقدمتهم والدته الحبيبة . فما كاد يداعب هذا الأمل حتى وافاه البرق بنعى أحبّ الناس اليه ، فأثر هذا المصاب الجلل فى نفسه تأثيراً بليغاً ، وبعد ساعة كتب هذه المرثية الرائعة التى تحاشى مراجعتها ونشرها من فرط تأثره ، فبقيت مستورة بين أوراقه الخاصة .

* * *

الى اللهِ أشكو مِنْ عوادى النوى سَهْمَا أصابَ سويداءَ الفؤاد وما أَصْمَى
من الهاتكاتِ القلبَ أولَ وهلةٍ وما داخلتْ لحماً ولا لامستْ عظما
توارد والناعى فأوجستُ رنةً كلاماً على سمعى وفى كبدى كلما
فما هتفا حتى نزا الجنبُ وانزوى فيا ويحَ جنبى كم يَسيلُ وكم يَدمَى
طوى الشرقَ نحو الغرب والماءَ للثرى الىَّ ولم يركب بساطاً ولا يَمَّا

أبان ولم يَنْبُسْ ، وأدّى ولم يَفُه وأدمى وما داوَى ، وأوهَى وما رَمّا
اذا طُويتْ بالشهبِ والدّهم شقّةٌ طوى الشهبَ أو جابَ الغدافية الدّهما !
ولم أر كالاحداث سهماً اذا جرتْ ولا كالليالى رامياً يُبعد المَرْمَى !
ولم أرَ حكماً كالمقادير نافذاً ولا كلقاء الموت من بينها حَتْما
الى حيث آباء الفتى يَذهبُ الفتى سبيلٌ يدين العالمون بها قِدْما
وما العيشُ إلا الجسمُ فى ظل روحه ولا الموت الا الروح فارقتْ الجسما
ولا خلدَ حتى تملأ الدهرَ حكمةً على نزلاء الدهرِ بعدَك أو علْما
زجرتُ تصاريفَ الزمانِ فما يَقعْ لىَ اليوم منها كان بالأمس لى وَهْما
وقدّرتُ (للنعمان) يوماً وضدّه فما اغترّتْ البوسى ولا غرّتْ النعمى
شربتُ الاسى مصروفةً لو تعرضتْ بأنفاسِها بالفم لم يستفق غمّا
فارِعْ وناولْ يازمانُ ! فانما نديمُكَ (سقراطُ) الذى ابتدع السّما !
قتلتُكَ حتى ما أبالى أدرتَ لى بكأسك نجماً أم أدرتَ بها رَجْما !
لكِ الله من مطعونةٍ بقنا النوى شهيدة حربٍ لم نقارفْ لها إثما
مدلهةٍ أركى من النار ظفرةً وأنزه من دمع الحيا عبرةً سحما
سقاها بشيرى وهى تبكى صبابة فلم يقو مغناها على صوبه رَسْما
أستْ جُرْحَها الانباءُ غيرَ رفيقةٍ وكم نازعٍ سهماً فكان هو السهما !
تغارُ على الحمىّ الفضائلُ والعلا لما قبّلتْ منها وما ضمّتْ الحمّى !
أكانت تمنّاها وتهوى لقاءها اذا هى مسّاها بذى الأرض مَنْ سمى ؟!
ألمّتْ عليها واتّقتْ ثمراتها فلما وُقوا الاسواءَ لم ترها دمّا
فيا حسرتا ألاّ تراهم أهلةً اذا أقصر البدر التمام مضوْا قدما
رياحين فى أنف الولىّ وما لها عدوٌّ تراهم فى معاطسه رغْما
وألاّ يطوفوا خُشّعاً حولَ نعشها ولا يُشبعوا الركن استلاماً ولا لثما
حلفتُ بما أسلفتِ فى المهد من يدٍ وأوليتِ جثمانى من المنّة العظمَى
وقبرٍ منوطٍ بالجلال مقلدٍ نليدَ الخلال الكُثر والطارفَ الجمّا
وبالغاديات الساقيات نزيله من الصلوات الخمس والآىَ والاسما
لما كان لى فى الحرب رأىٌ ولا هوًى ولا رمتُ هذا النكلَ للناس واليتما
ولم يكُ ظلمُ الطيرِ بالرقّ لى رضاً فكيف رضائى أن يرى البشرَ الظلما ؟!
ولم آلُ شبانَ البريةِ رقّةً كأنّ ثمارَ القلب من ولدى ثمّا

وكنتُ على نهجٍ من الرأى واضحٍ أرى الناس صنفين : الذئابَ أو البُهْمَا
وما الحكم إلا فى أولى البأس دولة ولا العدل إلا حائط يعصم الحكما

* * *

نزلتُ رُبى الدنيا وجناتِ عدنِها فما وجدتْ نفسى لأنهارها طعما !
أريج أريجَ المسك فى عَرصاتها وان لم أرح « مروان » فيها ولا « لخما »
اذا ضحكتْ زهواً الىَّ سماؤها بكيتُ الندى فى الارض والبأسَ والحزْمَا
أطيفُ برسمٍ أو ألمُّ بدمنةٍ اخال القصورَ ازهرَ والغرَف الشُّمَّا
فما برحتْ من خاطرى « مصرُ » ساعة ولا أنتِ فى ذى الدار زايلتِ لى وهْما
اذا جنّنى الليلُ اهتززتُ اليكما فجنحاً الى سعدى وجنحاً الى سلمى
فلما بدا للناس صُبْحٌ من المُنَى وأبصر فيه ذو البصيرة والأعمى
وقرَّتْ سيوفُ الهند وارتكز القنا وأقلعتْ البلوى وأقشعتْ الغُمَّى
وحنَّتْ نواقيسٌ ورنَّت مآذنٌ ورفتْ وجوهُ الأرض تستقبل السلما
أتى الدهرُ من دون الهناء ولم يزلْ ولوعاً ببنيان الرجاء اذا تمَّا !
اذا جال فى الأعيادِ حلَّ نظامَها أو العُرسِ أبلى فى معالمه هَدْمَا
لئن فاتَ ما أمَّلتِه من مواكبٍ فدونك هذا الحشدَ والموكبَ الضخما !
رثيتُ به ذاتَ التُّقى ونظمتُه لعنصره الازكى وجوهره الاسمى
نمتكِ مناجيبُ العلى ونميتها فلم تُلحَقى بنتاً ولم تسبقى أمَّا
وكنتِ اذا هذى السماءُ تخايلتْ تواضعتِ لكنْ بعد ما فتَّها نجما !
أتيتِ به لم ينظمْ الشعرَ مثله وجئتِ لاخلاق الكرامِ به نظما
ولو نهضتْ عنه السماءُ ومخَّضتْ به الارضُ كان المزنَ والتبرَ والكَرْمَا !

كلمة ختامية

والآن نتأهب لنُلقى القلم بعد اشرافه على هذه الذكرى لفقيدنا العظيم ـ نلقيه بشعور من الألم الدفين والتردّد الحزين ، والخاطرُ المكلومُ يردّد :

ليتَني ما خُلِقْتُ فى الناسِ حَتّى ... لا أرى غايةَ العظائمِ مَوْتا
والجَنانَ الذى تألّقَ وَحْيَا ... بين عُمْرٍ مُقَيَّدٍ ليس يَحْيَا
والحكيمَ الذى يُناضلُ جيلاً ... ناصرَ العقلِ قد تَرَدَّى تمثيلاً
قَتَلَتْهُ الأيّامُ رغمَ انتباهٍ ... رغمَ طبٍّ ورغمَ مالٍ وجاهِ
ونُرِكْنا نرى (الحياةَ) السّخافهْ ... ونرى (الموْتَ) بَعْدَها كالخرافهْ !

ونُشفق على وجداننا من ثورة اليأس فنعود نتلمس العزاء فى صور من التفاؤل بمآل الانسانية ، وببقاء الجوهر دون العرض ، وبالذخيرة النفيسة من الأدب العالى التى تركتها لنا تلك المواهبُ العزيزة المفقودة . ونلتمى أخيراً فى عجز وتعثر الى الايمان بأنّ الأثر هو ظلُّ الأصل بل توأمهُ ، وأن خلودَه خلودٌ لمصدره ! وهكذا نصطنع العزاء ، ونعكف على دراسة هذا الأثر ، ونعتبر فى ذلك رمزَ الاكبار للفقيد الكريم ومعنى الاعتبار للأحياء .

وقد رأى مجلس (جمعية أبولو) أنّ فى هذه الدراسة تقديراً أجْدَى مراراً من حفلات التأبين المألوفة ، وإنْ كان قد لبّى دعوةَ وزارة المعارف لاقامة حفلة تأبين شاملة باسم جميع الهيئات الأدبية ، واشترك فى تنظيم الحفلة وفى القيام بالتأبين ذاته بواسطة مندوبيه وفى مقدمتهم رئيس الجمعية ووكيلاها وسكرتيرها ، كما أخذت الجمعية تحت رعايتها حفلة طلبة الجامعه المصرية ، وبعثت بأعضائها من الشعراء لتعزيز غيرها من الحفلات التأبينية ، وهكذا قام الشعراء بواجبهم نحو الراحل العظيم منذ اللحظة الأولى لهذه الفجيعة المروعة . ولكن اهتمام الجمعية الأكبر دام موجّهاً الى واجب الذكرى الدراسية ، ولا نعد هذا العدد الخاص من (أبولو) الا تمهيداً له ما بعده من بحوث جليلةِ الشأن نؤثرها على المرائى الشعرية .

وقد رأى القرّاء أننا جعلنا مبدأنا الشامل لتحقيق هذه الغاية روحَ الانصاف فما حجرنا على شىء اعتقدنا أن الاخلاص يمليه ، وسمحنا بنشر النقد الأدبى النزيه

حتى لا يعتبر هذا الأثر من قبيل المجاملات الواهية التى لهـا مناسباتها ثم تنقضى .

وعندنا أن مرثية رئيس تحرير « الجهاد » التى نُشرتْ يوم الوفاة من خير ماقيل فى تحديد واجب النـاقد الأدبى . فقد كان مباحاً فى حياة الفقيد تنـاول شتَّى العوامل المحيطة به حتى بعض ما يعتبر من العناصر الشخصية الخاصة ، ولـكن جلُّ هذا إن لم يكن كله مما يُتناسى بعـد وفاته لأن الغرض الاصلاحى قد انتهى بوفاة الشاعر ، ولا يعبأ الناقد المنصف فى أغلب الأحوال بعـد ذلك الاَّ بالأثر الأدبى وحده وبالملابسات التى تفاعلت معـه حقيقة وبينها طباع الشاعر وظروف بيئته التى كيفت شاعريته .

ومن الانصاف لمن يريد أن يضع شوقى بك موضعه من العبقرية أن يذكر حالة الشعر العربى حينما نبغت شاعرية الفقيد على حداثة سنه ، وحينئذ يقدّر جراءته فى مناحيه التجديدية . وتلك دراسة يجب أن تقترن بآثار مطران فى ذلك العهد وهى آثار رائعة أشاد بقيمتها شوقى بك نفسه وقد كانا من أصفى الاصدقاء .

ونرى أن حياة الفقيد الرسمية لم تَحُلْ فى ذاتها دون قرضه الشعر العالى ، وإنما البيئة فى ذلك العهد لم تـكن منبهةً للشعر الفنى الذى تَجلَّى أخيراً وحفز اليه الشعراء الشبانُ المثقفون تثقيفاً أوروبياً ، فسار الفقيد فى معظم الاحوال فى طليعة الحركة التجديدية إذ لم يكن يرضى أبداً أن يتخلَّف عن أىّ نهضة حديثة ولو تردَّد أولاً . ونعدّ أنّ التخلّى عن مركزه الرسمى وبأسه القديم لم يحرّره تحريراً فنياً فقد كان حراً دائماً من هـذه الوجهة ، بل جعله يسعى لتعويض صولة المـاضى عن طريق العظمة الفنية بانتاجه الوافر الممتاز ، فـكان له فى ذلك عزاءٌ خاصٌّ الى جانب استمتاعه الفنّى ، وهو تطوّر لا بدّ أن يؤمَّن عليه خاصة الأدباء النقّـاد وكل باحث نفسانى دقيق .

ولعلَّ أظهرَ مـيزةٍ لشعر شوقى حلاوته الساحرة ، وعندنا أنه لو لم يكن شاعراً لـكان موسيقياً ، فهو بفطرته طروبُ النفس موسيقىُّ الرُّوح ، فلا عجب إنْ سحرَ بأنغامه العـالمَ العربىَّ بأسره حتى فى المواقف التى قـد لا تبلغ فيها جودة شعره الدرجة المعهودة منـه وحتى فى نماذج شعره التقليدى الذى تتراءى فيـه معانى المتقدمين وأخيلتهم أو المعانى السائرة فى عصره .

هذا هو مفتاح الاعجاز فى شعر شوقى — هو موسيقيته الفريدة النابعة من حسٍّ رقيق وطبعٍ مصقول . وهى التى خلبت الألباب وكان من ردّ فعلها أن

نشأت مدرسة محافظة كادت تكفر بالمعانى الشعرية الرائعة وبأسمى الشعر الفنّى وتجرى وراء الرنين الموسيقى وحده ، وهذا من العجب بمكان !

كان شوقى بك فى العهد الخديوى ذا نفوذ عظيم وكانت البواعث للشعر الفنّى محدودة جداً كما ذكرنا ، فلما دال ذلك العهد وذاق شوقى بك مرارة النفى — وإن كان قد رحّب به أولا فراراً من الجوّ السياسى الموبوء — وهى مرارة حدّثنا عنها شخصياً فيما بعد وألمع اليها فى شعره الأندلسى ، لم يكن له عزاء الاّ فى الانهماك الأدبى ، وهذا سر انتاجه الأخير الذى نما وتضاعف بحافز المنافسة الأدبية التى قويت فى العهد الحديث وانزوى أمامها غيرُ واحدٍ من مشهورى شعرائنا المحافظين الذين نبهوا فى الجيل السابق . وكما أنّ الأمير مؤمّر على رعاياه جميعاً فكذلك كانت نفسية شوقى بك تنزع الى أن يضرب فى كل باب من أبواب الشعر بسهم ، فكان شاعر النهضة العربية وشاعر الاسلام وشاعر الوطنية وشاعر الفنون الوصفية وشاعر الحب والأغانى الخ . حتى يشمل انتاجه جميعَ ميادين الشعر أو ما يُظَنّ أنها ميادين الشعر ، وهو مدين بهذه الروح لنشأته الرسمية وفى سبيلها لبث يكافح الى آخر لحظة من حياته . وقد حدثنا رئيس تحرير «الأهرام» عن شوقى بك فقال آسفاً إنه ما كان ينبغى له أن يعمل فى أواخر عمره ، ونسب الى هذا المجهود العنيف تدهور صحته أخيراً . ولكنْ بغضّ النظر عن الأسباب الطبيعية التى آلت الى إعيائه — وفى مقدمتها انهماكه فى التدخين حتى وهو فى مرض الموت — فاننا لا ندرى كيف كان من المستطاع لذهنٍ وقّادٍ كذهن شوقى أن يقنع بالهمود اذا كان فى طاقته أن يشتعل ويضىء .

ومما لا جدال فيه أن شاعرنا العظيم أجاد إجادةً فذّةً فى اكثر من ضرب من ضروب الشعر ولا سيما فى الشعر الوصفى والشعر التاريخى الذى ينقلك الى قرون خلت فتعيش بين أهلها الأحياء ، وما نشك لحظة ان جاهه ونفوذه ساعداه كثيراً على احياء اسمه وصيته ، ولولا هذا الجاه والنفوذ لما ظهرت له رواية تمثيلية واحدة على خشبة المسرح نظراً لجمود مسارحنا المصرية . وقد عيب عليه أن رواياته لا يتجلّى فيها فنّ التمثيل ، ولكنّ العائبين أو معظمهم لا ينكرون أنّ شعره فى نفس هذه الروايات من أرقى الشعر العربى الحديث . وآيةُ العجبِ انّ شوقى فى شيخوخته أبى إباءً أن يسبقه الشبان الى أىّ انجابٍ جديدٍ لا يُساهم فيه ، فحفزه هذا الى وضع رواياته الشعرية التمثيلية وله من مطالعاته ومشاهداته ومن ذاكرته القوية كنز زاخر بالمرائى والتجاريب وأسرار اللغة يستمدّ منه العون . وكان فى أول الأمر ينزع الى الاوبرات ثم آثر

عليها الدرامات الشعرية ففتح الباب الذى أغلق بوفاة المرحومين نجيب الحداد واسماعيل عاصم . ومهما يكن من شأن رواياته التمثيلية فلا نزاع فى أنها أتاحت له فرصاً بديعة لتصوير ألوان الحياة والموت أيضاً ، ذلك التصوير الخلاّب الذى لم تفارقه سلاسته المعهودة ودقته الآسرة . ومَنْ ذا الذى لا يتأثر بقول كليوباطرة الناعمة اليائسة وهى تتهيأ للانتحار :

يامَوْتُ لُطفْ بالرُّوحِ واسرقْها كما ... سرقَ الكَرَى عينَ الخليِّ السالى
حتى أموتَ كما حييتُ كأننى ... بيتُ الخيال ودُميةُ المثّالِ
وكأنَّ إغماضَ الجفونِ تَناعُسٌ ... وكأنَّ رَقدَتى اضطجاعُ دلالِ

وهذه الابيات يقولها شيخ فى الستين من عمره ! هنا دقة التصوير وجراءة الخيال وحلاوة اللغة الفاتنة . وفى الحق أن شوقى كان فنّاناً فى لغته ، ولو لم يجامل المحافظين ويسترضيهم بأساليب لغوية عتيقة أحياناً لما ارتفع صوتٌ بمؤاخذته . ومع هذا فقد طوّع اللغة تطويعاً ببراعته فى مواقف شتى ، وكان طبعه الموسيقى يتغلب على التنافر الذى يعترضه فى معظم الأحوال . ولكنه حاول أن يرضى جميع المدارس الأدبية بمثل محاولته أن يكتسح جميع ميادين الشعر الجليل والصغير منها على السواء ، ولا نعتقد أنه أصاب بهذا التصرف الذى لم يكن ليتفق مع طبيعته فكانت له من ورائه عثرات وسقطات . كذلك لا نراه على صواب فى مجاراة العامة بنظم الأغانى العاميه وإن سمحت معانيها ، فقد كانت هناك ندحة له عن ذلك وهو حارس لغة القرآن والشاعر الذى تذوب عربيته السليمه رقة ويقبل عليها الجميع ، ولا نؤمن بأية دعوى عن ترقيته للأغانى فانه — طيب الله ثراه — لم يحاول أن ينهض بالجماهير بل آثر أن ينزل الى مستواهم اللغوى ، ولو أنه حاول أن يسمو بهم لجاءت محاولته هذه قدوة الجيل ولا نساق خلفه كثيرون من مؤلفى الأغانى . أما الحال الآن فعكس ذلك تماماً ، وقد تجرأ تبعاً لذلك غير واحد من شعرائنا النابهين على وضع الأغانى العامية والمباهاة بها مادام شوقى قد سبقهم الى منل ذلك ، وكأنما لا شخصية لهم ! وهذه مؤاخذة ردّدناها على مسمع الفقيد فى حياته وكان كلُّ دفاعه أنه أراد أن تكون الاغانى شعبية وأنه لم ينس نصيب العربية السليمة من شعر للغناء ، وقد نظم بناء على على هذا النقد قصيدتيه الاخيرتين للآنسة ملك ، وكان فى وسعه أن ينظم شتى المواويل والأدوار العربية السليمة التى تصلح على مدى الزمن للعالم العربى بأسره

لا لعامة مصر وحدهم ، كما هو شأن رواياته الشعرية التمثيلية وما تضمنته من شعر بديع رائع جدير بأن يُستشهد به فى شتى المواقف .

فُتِن شوقى بك بالتاريخ كما فُتن بالوصف التصويرىّ فكانت له بدافع هذا الميل روائع شعرية خالدة ، كما تجلّت شواهد التاريخ وعظاته فى الكثير من شعره وبينها ثلاث ملاحم فى وقت نسى الشعرُ العربىُّ الملحمةَ وتكييفها ، وهذه مفخرة له لا يجوز ان ينساها أىُّ مؤرخ . وفُتن بالمتنبى عن طبع مشغوف بالحكمة وعن صفات مشتركة بينهما فكان متنبى عصره ، وإن ساقه الغلو التقريرى أحياناً الى نماذج من النظم لا هى فى الشعر الفنى الخالص ولا هى من شواهد الحكمة العميقة . مثال ذلك مطلع آخر قصيدة له :

المُلكُ بالمالِ والرجالِ لم يُبنَ مُلكٌ بغير مالِ

وحتى بيته المشهور :

وانما الأُمَمُ الاخلاقُ مابَقيتْ فانْ هموا ذهَبَتْ أخلاقُهمْ ذهبُوا

ليس من الشعر فى شىء ، وإن كان آيةً من الحكمة الساذجة . ولكنّ الشعر والحكمة تجتمعان فى مثل قول شوقى :

دقّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إنّ الحياة دقائقٌ وثوانى

وقوله :

فما العبدُ إلاّ كالدخان وإنْ علا الى النجم منحطٌّ الى الأرض سافل

وقوله :

ومنْ تبسمْ الدُّنيا اليه فيغترّْ يَمت كقتيلِ الغيدِ بالبَسَماتِ !

وتوجد نماذج للحكم الشعرية أخرى نفيسة فى « شوقياته » كما يوجد بجانبها غير قليلٍ من النظم الخبرى التقريرى الذى لا نعده من الفلسفة الشعرية فى شىء.

وما كان شوقى بك بطبيعته وبظروف بيئته الأولى الشاعر الاجتماعى ، ولكن بيئته الثانية بعد الحرب وتعلّقه الجديد بالجمهور خلق منه الشاعر الاجتماعى المؤثر فى ظروف جمّةٍ ، وإن كان كثيراً ما تردّد وتحوّل بحكم اعتباراته السياسية الخاصة مما دعا الى مؤاخذته الشعرية . وعندنا أنه انتزع هذه المكانة انتزاعاً من حافظ ابراهيم بك ، لأن حافظ كانت تنقصه الوثبات القوية الأخّاذة والخيال الرائع المحبوب وقدرة التصوير الفنى المتجلية فى شعر شوقى مهما يكنْ من استجابة حافظ لعواطف الشعب

استجابة فطرية ، وهكذا تمّتْ لشوقى بك الفتوح فى ميادين متعدّدة حتى فى الميدان الذى كان من اختصاص منافسه الكبير الذى كاد يعتزل الشعر اعتزالاً قبل وفاته بزمن خلافاً لشوقى بك الذى أخذ يناضل عن صولجانه الى آخر رمق من حياته وكان يستفيد من النقد وإن امتعض منه دائماً .

وقد كان الفقيد العزيز مثالاً لوداعة النفس بين أصدقائه ومريديه — وداعة الأديب المهذَّبِ ، وكان وفياً جداً لآله ، ولولا انه اعتاد ان يجعل شعره أساساً للصداقة والخصومة لشمل وفاؤه الجميع ولما كان هناك تناقض غريب فى طباعه وفى أوصاف المؤرخين له . وكان بطبيعته يميل الى الإصغاء اكثر من ميله الى الكلام ولكننا ننكر أنه كان اعتيادىّ الحديث ، اللهم إلا بين من لا تربطهم به وشائج الصداقة القوية فكان يضن ضناً بحديثه وبعلمه وأسراره . وقد كان حاضر الفكاهة سريع الخاطر حيثما لم يوجد مجالٌ للكلفة . زرناه قبيل وفاته بأربعة أيام وذكرنا له ان العدد الثانى من (أبولو) كان عاطلاً لأنه حرمه شِعرَهُ فابتسم وقال على الفور : وأنا كذلك كنت عاطلاً ! (يشير الى مرضه) . وعلاقاتنا الودية به التى ترجع الى أكثر من ربع قرن كانت فى ذاتها شفيعاً دائماً فى رفع أية كلفة بيننا ، وفى أخذ آرائه الصريحة الحكيمة فى شتى المسائل بغير تردد منه ، وفى مجابهته بنقدنا وان ساءه . نقول ذلك دفعاً لما سمعناه وقرأناه عن نزول حديثه دون المستوى المعتاد ، بعكس الحال لشعره الخالد . والحقيقة انّ حديثه على صورتين : منه ما يخصّ به صفوة خلصائه ، ومنه ما يقتصد فيه كثيراً بين زائريه ، وقد علمتْه تجاريب الايام أن يكون على حرص وحذر ، وهو بهذا الدافع أبى أن يدون مذكراته الشخصية كما اقترحنا عليه وكان بين أعذاره أن الناس ينفرون من الحق المؤلم وهو لا يريد أن يقول غير معتقده .

وفى هذا السجل التاريخى الأدبى المهدَى الى ذكراه لم يسعْ غير واحد من مريديه الأفاضل إلا أن يشير الى طبيعة الفقيد الكريم فى الحرص الشديد على مكانته الأدبية وكيف أن المتجرين بالأدب استغلوا هذه الطبيعة اسوأ استغلال ، وما زال نفر منهم الى الآن يريد ان يعلن عن نفسه على حساب الفقيد ويريد أن يتظاهر بانه ملكىٌّ أكثر من الملك ، ومن هذين الظرفين نشأت خصومات ومنافسات متعددة ما كان يجوز مطلقاً أن تنشأ لو أن الفقيد الكريم لم يخفل بشىء من ذلك ، فان

التاريخ خيرُ منصفٍ على مدى الزمن ، ولا يجوز للرجل العظيم أن يأبه لتحامل المتحاملين أو أن يستدرجه أيُّ اعتبار لمنافسات غير مقبولة ، فلكل فنان طبيعته وآثاره وحسناته ، ومن خير الادب وكرامته أن يطلق لكل متفنن الحرية والتشجيع لانجاب أروع حسناته ، ومن غنم الادب ان نظفر بمجموع الحسنات لشتى الرجال . وعلى هذا المبدأ السامى قامت (جمعية أبولو) التى توَّج الفقيدالعزيز مآثره برئاسته لها ومده يد التعاون الاخوى لاعضائها الشعراء ونقاد الشعر بعد أن كان مشهوراً بفرديته ، وكان هذا مبدأ تطور جديد عظيم الأثر فى الحياة الأدبية بمصر . ولذلك صدق سكرتير «جماعة الادب المصرى» حينما ذكر فى مقاله (ص ٢٧٨) إن فجيعة جمعية « أبولو »بفقده عظيمة فوق مصاب العالم العربى بأسره ، وقد سبقنا حضرته الى ملاحظات سديدة نوافقه على معظمها وربما عدنا الى بعضها فى المستقبل.

وكانت الصراحة سائدة فى هذه البيئة الشعرية العائلية حتى ان الفقيد الكريم لم يسؤه أخيراً أن يشدَّد عليه فى التخلى عن شعر الحفلات والاكتفاء بالشعر الفنى وحده . وهذه صورة جِدُّ مختلفة عما شاع وذاع عنه فى سالف السنين .

وقد نوَّه أستاذانا سعادة احمد زكى باشا وحضرة خليل مطران بك بوداعة المرحوم شوقى بك وظرفه وتجرُّده عن الهجو فى شعره ، ولم يُنكرا فى الوقت ذاته أن حاشية الفقيد كانت مسؤولةً عن أقسى الحملات المغرضة على الكثيرين من الأدباء وعن اثارة حرب طاحنة ما كان يجب أن تثار مطلقاً فى بيئة تريد ان تخدم الأدب لوجه الأدب . فما علة ذلك وما تفسيره ؟ هذه نقطةٌ لن يفلت منها أيُّ مؤرخٍ نزيه . وعندنا ان الفقيد العزيز دمثُ الخلق بطبيعته ولكنه يتأثر ببيئته الى حد كبير (subjective) ، حتى أنك لتجد دائماً شعره متأثراً بآخر مطالعاته ومجالسه ونظراته ، وإن اصطبغ بموسيقيته أو بنزعةٍ لغويةٍ خاصةٍ أو نحو ذلك ، فكأنه مَرآةٍ متعددة . وهذا لا ينافى فى الوقت ذاته ان عبقريتَه منبعثةٌ من نفسه خلافاً لحافظ ابراهيم بك الذى كان مرآة نخمة لمشاعر أمته وكان نبوغه من وحى امته لا من ذاتيته هو ، وهو رأىُ أستاذنا مطران أيضاً . ويتصدَّى للتأريخ الأدبى فى هذه الآونة مستمرين فى حملاتهم الغاشمة على المدارس الأدبية فى مصر وناشدين الشهرة الفانية على حساب الفقيد نفسُ المتملقين الذين أساءوا الى كرامة زملائه من الشعراء والأدباء بما اختطوه من خطةِ الملق له والانتقاص من زملائه وأنداده فى حياته . ولكن اليقظة الأدبية الأخيرة فى الجمهور أخذت تستنكر تصرُّفهم هذا أشدَّ الاستنكار

وأضعافَ استنكارها ذلك فى حياة الفقيد العزيز الذى يجب أن يتآلف الجميعُ حولَ ذكراه فى محبةٍ وتعاونٍ كما تجلَّى ويتجلى ذلك فى (جمعية أبولو) .

واذا كان لانسانٍ أن يودّع الحياةَ قريراً على أكمل وأهنأ صورة ، فهكذا ودّعها شوقى بك بعد أن أدّى رسالته فى شتّى النواحى وترك من الذخائر الأدبية ما لاينال منه الفناء مهما طحنها النقد وغربلتها الأحداث وتلقفتها العوادى . وقد كان كفيلا لذكائه النادر وعبقريته الفذة باستبقاء مذهبه الشعرى وجهوده حيةً بحياته ولكن من المستبعد جداً أن ينشأ نِدٌّ له يستطيع أن يقيم له علماً خفاقاً مثل علمه بعد ان تطوّرتْ المناحى والأذواق والأساليب الشعرية فى العهد الأخير تطوّراً عظيماً هزّ شوقى بك نفسه فلم يثبت قدميه إلا انتاجه العظيم وكفاحه ومواهبه الساحرة . ففى ذمة التاريخ ما أنجبَ وما أبدعَ لخدمة الشعر والعالم العربى حتى رفعَ اسمَ مصر فى شتى الممالك الى جانب ما بلغه من الصيت الرفيع والشهرة الذائعة لنفسه . واذا كان لشعراء الشباب أن يستفيدوا من حياته العظيمة — وهو الواجب عليهم — فهذه الصحائف المتقدمة بمثابة تمهيد لذلك : فلهم أن يستفيدوا من عوامل التفوّق ، وعليهم أن يتجنبوا دواعى المؤاخذة ، وما كان التفوق إلا فى خدمة الشعر للشعر وفى التعاون الفنى الباهر الكفيل باظهار أجمل المواهب وتساندها لرفعة هذا الفنّ الجميل .

جمعياتنا الادبية

سألنا غيرُ واحدٍ من القراء عن صلاتنا بالجمعيات الأدبية ومبلغ ارتباط (جمعية أبولو) بها ، لمناسبة ورود ذكر بعضها فى تأبين المغفور له شوقى بك . وجوابنا على ذلك أنها صلات حبية تعاونية ، وفيما عدا ذلك فجمعية أبولو مستقلة تمام الاستقلال ولها مهمتها الخاصة ألا وهى خدمة الشعر والشعراء . وأشهر هذه الجمعيات هى :—

(١) « رابطة الأدب الجديد » ومركزها العام ميدان حليم رقم ٥ بالقاهرة ، ولها فروع فى العواصم المصرية وفى عواصم العالم العربى . والغاية منها تنتهى الى غرضين أساسيين : التعاون الفكرى الأدبى والتآخى الاجتماعى ، فهى جمعية أممية لها فوائدها الأدبية كما لها فوائدها الاجتماعية ، وهى فى دائرة اختصاصها تشبه من بعض الوجوه حركة جمعيات الشبان المسيحيين .

(٢) « جماعة الأدب المصرى » ومركزها شارع المسافرخانة رقم ١٥ برأس التين باسكندرية وهى متخصصة لدراسة الأدب المصرى قديمه وحديثه بشتى وسائل الدراسة ،

وتسدّ بوجودها فراغا من وجهة منزعها الخاص الذى كان مهملا الى حدّ كبير .

(٣) « جماعة نشر الثقافة » ومركزها نقابة الموظفين بالاسكندرية . وهى هيئة تعمل للحركة التهذيبية العامة ولها معهد خاص باسم « معهد الثقافة » وتتناول بحوثها شتّى المعارف العامة والدراسات الأدبية . وغايتها تثقيف الجمهور ورفع مستوى التفكير الأدبى .

(٤) « جماعة الإسيست » (Les Essayistes) ومركزها شارع المناخ رقم ١٥ بالقاهرة . وهى ترمى الى نشر روائع الأدب العالمى وتبادل الثقافتين العربية والغربية ولا سيما الثقافة الفرنسية ، ولها مجلة ممتازة تصدر باللغة الفرنسية .

وجميع هذه الهيئات قامت وتقوم بواجبها خير قيام بحوفقيدىْ العربية والشعر العربى المغفور لهما محمد حافظ ابراهيم بك و أحمد شوقى بك ، فحق علينا التنويه فى هذا المقام بغيرة أعضائها الأفاضل وحرصهم على التآزر مع (جمعية أبولّو) فى خدمة الشعر وتقدير أعلامه .

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٩	٧	الأوئل	الأوائل
٣٢٣	١	اثنى عشر	اثنا عشر
٣٢٣	٢٣	المكال	الكامل
٣٢٩	٨	أن	كأن
٣٣٧	١٢	ربان	ريان
٣٤٠	٢٧	زئبراً	زئيراً
٣٤١	٢٢	للميك	للمليك
٣٨٣	٢٠	متى	منّى
٣٩٢	٢	يفكون	يفكونه
٤١٠	١٨	وبطوالع	وبتطويع
٤١٥	١٠	جاء	جاد
٤٣٣	٢٥	البغصاء	البغضاء
٤٣٦	٢	معجزت	معجزات

وربما فاتتنا أخطاء أخرى ومعظمها ممايسهل تقديره وادراكه ، ولكننا على أى حال نرحّب دائماً بمعاونة الادباء وحرصهم على الدقّة فى صفحات هذه المجلة .